المحاضرة:03 العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي

علاوة على عمق العلاقة مع هذين الطرفين غلى غرار التجارة والروابط الثقافية والدينية فإن بلاد المغرب الأقصى خلال وصول السعدي إلى سّدة الحكم بدأ يسعى إلى توسيع نطاق حكمه من الشرق والجنوب من خلال البحث عن موارد ثانية تمكنهم من البقاء ودعم تطوير الاقتصاد فكان من أهم الموارد الحيوية استغلاله لسكر سوس وملح تغازا و وذهب السودان .

وخلال تولي هذه الأسرة الحكم كان المجتمع الدولي آنذاك في اضطراب وتوتر خاصةً من الجهة الشرقية الدولة العثمانية ومن الجهة الغربية الشمالية الغزو البرتغالي والإسباني إضافة إلى وجود القوة الإنجليزية والفرنسية ،أمّا العلاقات المغربية العثمانية توترت في بادئ الأمر للمحاولات المتكررة للدولة العثمانية في إيالة الجزائر لضم المغرب لها . لكن بدأت العلاقات تستقر في عهد السلطان مراد الثالث عندما أبرم حلفًا مع المغرب - أحمد المنصور- يستهدف غزو إسبانيا واستعادة الأندلس خاصة وإسبانيا كانت تعيش أحلك أيامها بعد هزيمتها في معركة أرمادا مع الإنجليز سنة (30 جويلية إلى 10أوت 1588).

بدأت المراسلات و المكاتبات الدبلوماسية بين البلدين وتردد السفراء أبو الحسن علي التمكروتي خاصة بين 1588- 1590م أمّا المنصور فقد اسقبل السفير التركي سنة 1589 ؛في ظل تلك الظروف كانت الدولة العثمانية تعيش بعض الإضرابات الداخلية كثروات طرابلس وتونس وثروات بلاد القبائل في الجزائر إضافة إلى الفوضى داخل اليمن مع الإضرابات الخارجية وقد أرسل المنصور مكاتبات يؤكد فيها على توحيد كلمة الإسلام بالقضاء على القوة الإسبانية والبرتغالية و هما عدوان للدولة العثمانية بالإشارة إلى توسع دولته شمالاً وجنوبًا حتى يضمن سكوتهما .

في تلك الظروف تكتلت القوى الاستعمارية الصليبية لاحتواء كل الساحل المغربي والقضاء على دولة المنصور للوصول إلى إفريقيا الغربية وهذا بتحالف وتوقيع السلطان المخلوع محمد المتوكل مقابل إمداده بالجيش البرتغالي، فتكتلت تلك الجيوش الصليبية وقد قدر عددها 125ألف مقاتل من البرتغال ، الأسبان، ألمانيا مع فرسان البابا و الرهبان حاملين أجراسًا لتعليقها في مسجد وجامعة القيروان ، حصلت المعركة في وادي المخازن بعيدًا عن نقاط التموين البحري في سهل محيط بالأنهار التي قطعت جسورها وكان النصر حليف المنصور في 4 أوت 1578 وقتل في المعركة ثلاثة ملوك وهي نقطة التحول في تاريخ المغرب وإفريقيا فأعتمد المنصور في سياسته بعدها على أهداف ثابتة أهمها:

- اعتماده سياسة متزنة بين القوى الخارجية .
- محاولة ضربها البعض بالبعض الآخر.

ـ إخراج المغرب من العزلة والعمل على فتح ثغرات للنفوذ المغربي إلى جهات بعيدة خاصةً جنوب وغرب إفريقيا. واحتلاله توات يمكنه منقطع الطريق على الأتراك العثمانين بالجزائر.

بدأ المنصور في رسم سياسته التوسعية أساسها التمركز في المواقع الإستراتيجية -من حيث طرقها وثرواتها واتخاذها مواطن ارتكاز منها بلاد توات وتيكورارين-في الجنوب الشرقي شعورًا منه بالدور الهام لهذه المنطقة فها هو الفشتالي يقول عنها مايلي : ".... فالقطران عالم من عوالم الأرض...بما جمع من الأمم و تراكم فيه من القصور وإتصل من العمران وتخلله من العيون..."

خرجت الحملة السعدية إلى توات وتيكوارين سنة 991هـ/1583من فاس ومراكش الأولى بقيادة أبي عبدالله بن بركة والثانية بقيادة أبي العباس أحمد بن الحداد العمري المعقلي فألحقوا تيكورارين بعد إحكامها على قاعدتها تيميمون ثم ألحقوا تمنطيط قاعدة توات وأحكموا عليها الشيخ عمر بن محمد بن عبد الرحمان الذي أعلن الطاعة للمنصور[1] هذه الخطوة كانت عامل مشجع على التماري في التوسع كونها- توات – قريبة من مملحة تغازي التي دار حولها التوتر بين ملوك سنغاي وسلاطين الدولة السعدية.

الخطوة الثانية للمنصور فقد كانت المفاوضات والمراسلات المتتالية مع أساقي سنغاي في ما خصت مملحة "تغازي"خاصة بعد موت السلطان " الأسكيا داود"[2] والذي كانت تجمعهما أواصر علاقات ود وصداقة المحبة خاصة بعد أن بعث الأسكيا داود هدايا معتبرة (عشرة آلآف ذهب) حيث يدفع الملك السوداني نصيب من المال مقابل ترك الممالك- تاوديني وتغازي وفي سنة 1582 تولى الأسكيا محمد الحاج الثاني وتبادلا الهدايا.

بعد الاستيلاء على توات واصل طريقه في التوسع إلى سنة 1584 حيث إستولى على وادّان ومجرى السنغال ثم طلب من(بقيادة محمد بن سالم والثانية بقيادة عبد المولى بن عيسى ثمّ وصل إلى تغازي وألزمها بالطاعة وأقام عليها حصنًا وفرض مثقال من الذهب على كل حمل سنة 994هـ- 1586م.

إن موقف الأسكيا محمد كان سلبي حيث وهو مقاطعة لمملحة وعدم التعامل مع المغاربة – فأثار ذلك حفيظة شعب السودان وثارت الفوضى فانقلب عليه أخوه ثم توفي ثم تولى الأسكيا إسحاق سنة

1- يقول الفشتالي:"...وبعد أن التقت القوات الفاتحة سجلماسة قصدت تيميمون قاعدة قصور تيكورارين قدّموا إلى أهلها إعلان الطّاعة والولاء للمنصور ، وكانوا قدموا إلى أهلها كتب أمير المؤمنين بالإعذار و البراءة والدعاء إلى الطاعة فأساؤوا الرد ولادوا بالمنع واستعدوا للحصار ..."ينظر: الفشتالي ص74

2- يسميها بعض المؤرخين بمعظلة تغازا.

* - 996 : قامت فوضى داخل سنغاي وثار أحد الولاة في تنكيت هو محمد الصادق وحاول جعل نفسية أسكيا لكن الأسكيا إسحاق قضى عليه ونكل بأهل تنكيت إنتقامًا وممّن ثار عليه أخوه الذي قبض عليه ونفاه إلى تغازي بإشارة من جاسوس المنصور (منصوربن القيلالي)

996هـ*- 1588م في 1589 وصل إلى مراكش أخ الأسكيا إسحاق هو علي بن داود فاستشير المنصور بذلك ، فأرسل المنصور بقائمة مطالبة في تسليم البلاد والإذعان بالطاعة لكنه رفض وبعث له مايستفزه

– نعلين من حديد وسلسلة حديد – فأقام المنصور الحجة على الأسكيا إسحاق الثاني وبدأ في تجهيز الحكمة بعد أن طوّق نفسه بالحجج الشرعية ، حينها أعدّ المنصور العدّة واتخذ قرار الحملة وأقنع مستشاريه بحتمية الدخول إلى السودان وكان ذلك بقيادة الباشا جؤذر وكبار قادته معلنًا يوم الخروج = 16أكتوبر1590م/16ذي الحجة من 998هـ متحذًا طريق (مراكش درعه – تندوف- حمادة البركة عرق إقدي وشاس،تغازي – تاوديني – أونان، عروان تنكت _ بامبا _ بورم _ تنديبي _ عاغو.

قبل أن يصطدم الجيشان بعث جودر برسالة يناشده بالتفكير في عروض المنصور تجنبًا لإراقة الدماء لكنه رفض . شكل له هيئة إستشارية من كبار القادة هم: مصطفى التركي، مصطفى بن عسكر،أحمد الحروسي الأندلسي ،أحمد عطية العلجي علي بن منصور العلجي ...فاختار جودر باشا . التقى الجمعان في كاغو(غاو) يوم **13مارس1591م/16جمادى الأولى 999هـ**.

لقد تبعت ممالك السودان الغربي إلى الحكم السعدي المغربي منذ 1591هـ المحيط الأطلسي إلى إمارة "كنو" المتاحمة إلى مملكة "برنو" التي أعلنت ولائها سابقا للسلطان أحمد المنصور السعدي حيث أخذ السلطة السعدية في السودان اسم الحكم الباشوي ثم اسم الرماة لحكم من جاء بعدهم من أولادهم